

العلاقات الإسلامية البيزنطية في النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى في ضوء الاتفاقية الحلبية البيزنطية ٣٥٩ هـ / ٧٩٠ م

١ . د . د . علية عبد السميع الجنزورى *

من الثابت في التاريخ ان الحمدانيين لماكادوا يستولون على حلب سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ، حتى اتخذوا تلك المنطقة المتقدمة المجاورة لحدود الدولة البيزنطية قاعدة لشن حروب طويلة متقطعة على البيزنطيين . ويقال إن سيف الدولة الحمدانى وحده غزا بلاد الروم المتاخمة لدولته أربعين غزوة . ومن المدن التابعة للبيزنطيين عندئذ والتي تعرضت لهجمات الحمدانيين زبطرة وعرقه وملطية ومرعش ، ولحماية دولته من ناحية الروم أقام سيف الدولة الحمدانى قلعة الحدث الأمر الذى استثار الروم فقام نقفور فوقاس سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م بغزو قيليقية واستولى على المصيصة وطرطوس (١) .

وقد استهدفنا من هذا البحث إلقاء أضواء على العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية والقوى الاسلامية في شمال الشام من ناحية أخرى وذلك في القرن العاشر للميلاد ، الرابع للهجرة . واخترنا أن نركز في ختام هذه الدراسة على الاتفاقية التى عقدت بين قرغوية صاحب النفوذ الفعلى في حلب بعد وفاة سيف الدولة الحمدانى والبيزنطيين . وقد وصف المؤرخ يحيى بن سعيد الأنطاكى هذه الإتفاقية التى عقدت في صفر ٣٥٩ هـ (٢) / يناير ٩٧٠ م (٣) بأنها « صلح وهنة مؤبدة » (٤) .

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد — كلية البنات — جامعة عين شمس .

- (١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٣٥٤ هـ .
 - (٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ص ١٣٥ ، بن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ج ١ ، ص ١٦٩ .
 - (٣) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى ، ص ٥٢٦ .
 - (٤) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ص ١٣٤ .
- (٦ م — دراسات)

اخذنا هذه الاتفاقية (١) موضوعا لدراستنا نظرا لما لها من أهمية بالغة في تاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية في العصور الوسطى بوصفها من الاتفاقيات الدولية القليلة التي وصلت نصوصها النكاملة من تلك العصور ، بل إنها تعتبر من الوثائق التاريخية النادرة التي تتعلق باتفاقية بين المسلمين والمسيحيين قبل عصر الحروب الصليبية (٢) هذا فضلا عن أنها تلقى أضواء على مرحلة هامة من مراحل الصراع بين الدولة البيزنطية والمسلمين في الشرق .

وثمة أهمية أخرى لهذه الاتفاقية ، هي أن الدولة البيزنطية إتخذت منها ركيزة للمطالبة بحقوقها في شمال بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية لا سيما في مستهل تلك الحروب ، عندما ظهرت مطامع أمراء الحملة الصليبية الأولى في تلك المنطقة . ذلك أن الامبراطور البيزنطي حرص منذ وصول الحملة الصليبية الأولى الى حدود بلاده على أن يقسم له أمراء هذه الحملة بين الولاء والطاعة ، وأن يلتزموا بعد ذلك برد كافة الممتلكات التي يتم اقتطاعها من السلاجقة من نيقية حتى أنطاكية ، مقابل أن يتعهد الإمبراطور بمساعدتهم بكل قواه وبأن يدهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا (٣) . ومن أجل تحقيق ذلك تم عقد معاهدة بين الطرفين في مايو ١٠٩٧ م . ومعنى هذا أن الدولة البيزنطية اعتبرت نفسها صاحبة حق طبيعي في السيطرة على إقليم شمال بلاد الشام وخاصة ذلك القطاع الذي يضم أنطاكية وحلب . وكان هذا الإقليم بالذات هو الذي تناولته الاتفاقية التي سنعرض لها بالبحث بعد قليل . وبعبارة أخرى فإن الدولة البيزنطية اعتمدت في إثبات حقوقها في ذلك الإقليم على سوابق ترجع الى ما قبل عصر الحروب الصليبية بحوالى قرن وثلاث من الزمان تقريبا إن لم

(١) أورد ابن العديم الاتفاقية بشيء من التفصيل في كتابه زبدة الحلب ، ج ١ ص ١٦٣ — ١٦٨ . لذا جعلناه أساسا لنا في تطيل ودراسة بنودها .

2 — M. Canard : Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie T.I.P. 833 .

هنا يضيف (كانار) أن تلك الاتفاقية تعتبر ذات أهمية جوهريّة بالنسبة لتاريخ العلاقات بين البيزنطيين والحمدانيين الأواخر في حلب

(٣) د . عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٦١ .

يكن الى ما قبل القرن السابع الميلادى — الاول الهجرى — وبداية الفتوحات الإسلامية التى زحزحت النفوذ البيزنطى كلية من بلاد الشام .

وقبل أن نتعرض لهذه الاتفاقية بالدراسة المفصلة ينبغى أن نتعرف على طبيعة ذلك الإقليم الذى يشكل المسرح الذى دارت عليه حلقة من أشد حلقات الصراع الإسلامى البيزنطى ضراوة وعنفا . ولنبدأ بالنصف الثانى من القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى .

ذلك أن موت سيف الدولة الحمدانى فى صفر ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م (١) جاء خسارة كبرى نزلت بالمسلمين فى الشام لما كان معروفا عنه من شدة البأس فى مقاومة الروم أو البيزنطيين (٢) وربما كانت مثابرتة فى مواجهة البيزنطيين هى التى دفعت بعض المؤرخين إلى القول بأنه منذ سنة ٩٤٧ م أى حوالى ٣٣٦ هـ (٣) — فصاعدا وجد البيزنطيون أمامهم بعض العرب الذين اتصفوا « بالجلد والتحمل ، والصلابة والعناد ، مع رغبة قوية فى الطموح » (٤)

ولا أدل على شدة عناد سيف الدولة فى جهاد الروم مما قيل عن أنه حدث فى ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م أن تقدم الروم بقيادة الدمستق (٤) تنقور الى

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ص ١٢٧ ، الغزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ، ج ٣ ، ص ٦٤ زامبور : معجم الأنساب ، ص ٢٠١ . هو أبو الحسن على .

(٢) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .
(٣) هذه الفترة تواكب فترة حكم سيف الدولة الحمدانى التى تمتد من ٣٣٣ هـ الى ٣٥٦ هـ (زامبور : المرجع السابق ، ص ٢٠١) .
- 4 — Gaudefroy — Demombynes et Platonov : Le Monde Musulman et Byzantin , T . v11 , P. 324 .

(٤) كانت وظيفة الدمستق Domesticus تعنى القيادة العليا للجيش البيزنطى كله . ولما زادت المهام العسكرية للإمبراطورية وتعقدت قسمت تلك الوظيفة ، فمنذ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى كان هناك دمستق للجناح الشرقى وآخر للجناح الغربى من الإمبراطورية . عن G . Ostrogorsky : History of the Byzantine State P . 251 .
(R.Guilland : Etudes Sur L'histoire administrative de Byzance)
أما ابن حوقل فقد أشار إلى وظيفة الدمستق على أنها أحد المناصب الكبرى لدى الروم والتي عددها وتكلم عنها بالتفصيل فى كتابه صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

حلب وذلك بعد أن انتضى صوم النصارى مباشرة فباغتوا حلب في غفلة من سيف الدولة . وكان أن أسرع سيف الدولة بحشد قواته ولكنه لم يستطع الصمود أمام الروم لقلعة من معه إذ كان « في نفر يسير » ، مما أدى إلى هزيمته . وعندئذ إستولى الدمستق على داره وما فيها مما لا يحصى من الأموال والسلاح وغيره . ثم حاصر الروم مدينة حلب فصعد لهم أهلها ، وعندما أحدث الروم ثغرة في سور المدينة قاتلهم الحلبيون عليها فقتل من الروم عدد كبير ودفعوهم عنها ، حتى خيم الليل وعندئذ أعادوا تعميرها . وفي ذلك الموقف الخطير إتجه رجال الشرطة في حلب إلى منازل الناس وخانات التجار لينهبوها ، فلحق بهم الأهالى لينمعوهم ، الأمر الذى ترتب عليه خلو السور منهم ، فتسلق الروم السور ودخلوا البلد بالسيف وخلصوا حوالى ألف وأربعمائة من أسراهم وجمعوا السلاح وقتلوا الناس وسبى من البلد « بضعة عشر ألف صبى وصبية وغنموا مالا يوصف كثرة » . فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنمة أمر الدمستق بإحراق ما لم يستطيعوا حمله ، في الوقت الذى انسحب الأهالى إلى القلعة يحتمون بها . وهكذا ظل الدمستق في حلب حوالى تسعة أيام حتى إذا ما أراد الرحيل بما غنم قال له ابن أخت الإمبراطور الذى كان يرافقه « قد بلغنا ما لم يكن الملك (١) يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وخلصنا أسرانا وبلغنا ما لم يسمع بمثله » وحرضه على البقاء والاستيلاء على القلعة . وكان أن اتفقا على أن يتقدم ابن أخت الإمبراطور إلى القلعة ليستولى عليها في حين ينتظره الدمستق لحراسة سور المدينة . لكن ما أن اقترب ابن أخت الإمبراطور من القلعة حتىلقى عليه حجر أرداه قتيلا ، فعساده به أصحابه إلى الدمستق ، الذى أمر بقتل كل من معه من الأسرى المسلمين وكانوا ألفا ومائتى ثم عاد إلى بلاده (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن هجمات الروم على حلب في ذلك الدور أدت إلى إضعاف تلك الإمارة الإسلامية ، فاضطربت أحوالها وساعت .

وضاعف من سوء الأحوال في حلب أن خليفة سيف الدولة في حكمها ، وهو ابنه سعد الدولة لم يكن على درجة من الكفاءة تمكنه من مواجهة الهجوم البيزنطى ، إذ كانت تنقصه شجاعة أبيه وحكته السياسية مما أغرى بعض أمراء دولته على الخروج عليه (٣) .

- (١) المقصود بالملك هنا الإمبراطور رومانس الثانى Romanus 11
٩٥٩ — ٩٦٣ م (G. Ostrogorsky : OP . cit , p.578) . أما الدمستق فكان
نقفور فوقاس الذى أصبح بعد ذلك إمبراطورا بإسم نقفور الثانى .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥١ هـ .
(٣) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .

والواقع إن الحاكم الحقيقي لحلب عند وفاة سيف الدولة كان الحاجب قرغوية (١) ، غلام سيف الدولة وكان سعد الدولة أبو المعالي شريف مقيما في ميافارقين مع والدته عند وفاة أبيه، فأسرع بعض غلمان سيف الدولة الى استدعائه ، ووصل الى حلب في ربيع الأول ٣٥٦ هـ (٢) ٩٦٧ م .

وسرعان ما دبت الخلافات بين سعد الدولة وابن عمه أبي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان ، فتوجه سعد الدولة لمحاربته بصحبة قرغوية وإنتهى الأمر بمقتل أبي فراس بتدبير الحاجب قرغوية وبعض غلمانه وذلك سنة ٣٥٧ هـ (٣) / ٩٦٨ م .

وزادت الأمور تعقيدا عندما عاد إمبراطور الروم نقفور الثاني فوقاس Nicephoros II Phocas « ٩٦٣ — ٩٦٩ م (٤) / ٣٥٢ — ٣٥٩ هـ » الى تهديد شمال بلاد الشام (٥) في نفس السنة السابقة وبتى حصن بفراش أمام أنطاكية وتناقل الناس القول بأنه ينوى مهاجمة أنطاكية وحلب وعندئذ أشار الحاجب قرغوية على سعد الدولة بأن يخرج من حلب حتى لا يحاصر فيها . وعندما إستجاب سعد الدولة لمشورته وخرج إلى بالسل أرسل إليه قرغوية يقول « إمض الى والدتك فإن أهل حلب لا يريدونك ولا يتركونك تعود إليهم » .

ولم يلبث أن قطع قرغوية الدعاء لسعد الدولة من حلب وتقرب إلى

(١) يسميه جروسنيه René Grusset : L'Empire bu Lenvant, p. 116 (الوزير) وهى تسمية غير سليمة بينما يسميه كانار (Chamballan) أى الحاجب وهى تسمية أصح .

(M. Canard : Histoire de le Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie , T.1 , P. 831 .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٥٥ . دخل حلب يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول ٣٥٦ هـ .

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .
4 — G. Ostrogorsky : Op cit , P. 578, A.A Vasiliev : Histoire de L, Empire Byzantin, T.1 , P. 403 , Gaudefroy - Demombunes et Platonov : OP . cit , T. v11 , P. 461 .

(٥) كانت أهم المدن التى فتحها نقفور هى : معرة النعمان ، معرة مصرين ، كفر طاب ، شيزر ، حماه ، حمص ، عرقة ، طرابلس ، جبلة واللاذقية . ويقال أنه جاءه أبو الحسن على ابن ابراهيم بن يوسف التقيص باللاذقية موافقه على رهائن تدفع إليه منها وكافاه نقفور بأن جعله (سردغوس) بمعنى ستراتيغوس أى حاكم عسكري للمدينة (ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٨ — ١٥٩) .

أهلها بتحسين قلعتها وإعادة بناء سور البلد وتقويته (١) ، في الوقت الذي عاد إمبراطور الروم إلى بلاده بعد أن سمع بأخبار تلك التحصينات أما قرغويه فقد إستبد بحكم حلب ، وشاركه في حكمها غلامه بكجور « ودعى لهما على المنابر » وذلك ٣٥٨ هـ (٢) / ٩٦٨ — ٩٦٩ م .

على أن سعد الدولة أبو المعالي لم يستسلم لتلك الأوضاع ، فعاد الى حلب في رمضان ٣٥٨ هـ لمصاربة قرغويه واستمر يناوئه لمدة ثلاثة أشهر (٣) ولكنه لم يستطع استرداد المدينة من قرغويه الذي استولى على حلب وطرد منها ابن استاذة (٤) وبطبيعة الحال كانت النتيجة الحتمية لتلك الإحتكاكات هي إضعاف الجبهة الحلبية في مواجهة البيزنطيين .

والواقع إن الإمبراطور نقفور فوقاس كان لايمكن أن يترك تلك الفرصة تمر دون تحقيق أطماعه في شمال الشام . وقد عرف عن ذلك الإمبراطور أنه من أبرز أباطرة الأسرة المقدونية — التي حكمت بيزنطة من ٨٦٧ حتى ١٠٥٦ م (٥) — والذين اشتهروا بالكفاية والمقدرة (٦) .

وتنقسم جهود نقفور فوقاس في الشرق في السنتين الأخيرتين من حكمه (٩٦٨ — ٩٦٩ م) الى قسمين : الأول وهو العمليات الحربية التي قام بها وأشرف عليها بنفسه ، والثاني وهو إمتداد هذه العمليات عن طريق قواده وجيوشه في الشام حتى آخر عهده (٧) .

أما فيما يخص جهود نقفور — الذاتية — وهذا يجعلنا نتراجع قليلا للخلف — فيهنما منها ماقام به في بلاد الشام آخر سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م ، فقد توجه الى شمال بلاد الشام ونزل بأنطاكية يومين رحل بعدهما الى معرة مصرين وأمن أهلها من القتل وكان عددهم حوالي ألف ومائتى نفس وسيرهم الى بلاده ثم فتح معرة النعمان وحماه وحصص ومنها سار الى

(١) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ . كان قرغويه يخاطب بالحاجب وغلامه بكجور بالأمير .

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص ١٣٣ .

(٤) القزى : نهر الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

(٥) G . Ostrogorsky : Op . cit , P. 574 .

(٦) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٣٥ .
وقد إتصف نقفور فوقاس بالذات بالبراعة الشديدة في التكتيك الحربي .

(Larousse Encyclopedia of Ancient and Medieval History , the middle ages , P. 290) .

(٧) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .

طرابلس ونزلها يوم عيد الأضحى ، العاشر من ذى الحجة ٣٥٧ هـ وأقام عليها تلك الليلة « وأحرق ريفها » وحاصر مدينة عرقة تسعة أيام وفتح حصنها المنيع بالسيف وأخذ ما فيه من الناس والأموال ثم رجع إلى بلدان الساحل ففتح حصن إنطربوس ومرقية وحصن جبلة وصالح أصحاب اللاذقية عليها وخرب من القرى ما لا يحصى ثم عبر إلى أنطاكية وبنى حصن بغراس مقابلها « ورتب فيه رئيسا يقال له ميخائيل البرجى ورسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته ورتب معه ألف رجل ورجع الملك إلى القسطنطينية وأعاد إلى أنطاكية غلامه بطرس الإسطراطوبدرخ (١) » .

وإذا كان يحيى بن سعيد الأنطاكى قد أورد تلك الأحداث في آخر سنة ٣٥٧ هـ ، فإن ابن الأثير وضعها ضمن حوادث سنة ٣٥٨ هـ ، والراجح أن جزءا منها في آخر السنة الأولى والباقي في السنة الثانية ، فقد بين ابن الأثير أن نقفور بعد أن توجه إلى بلاد الساحل — وكان ذلك أوائل سنة ٣٥٨ — « أقام في الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ماثاء ولا يمنعه أحد وصار للروم الهيبة في قلوب المسلمين (٢) » .

(M. Canard : Histoire de la Dynastie des Hâmdani des , T. 1 P. 832) .

والراجح أنه كان أحد قواد نقفور وابن شقيقه في نفس الوقت كما هو واضح من اسمه الذى أورده أستروجورسكى .
(G. Ostrogorsky : Op . cit , P. 290) .

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ص ١٣١ . وبطرس الإسطراطوبدرخ هو نفسه الذى سماه ابن العديم الطربازى وهو بطرس فوقاس Pierre Phocas أو Peter Phocas ابن شقيق نقفور وهو قائد الحامية البيزنطية في شمال الشام . أما ميخائيل البرجى فهو Michel Bourtzès أو Michael Burtzes في المراجع الأجنبية .

(Rensé Grosset : L' Empire du Levant , P. 116 , G. Ostrogorsky : Op .

cit , P. 290) .
اسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم ، ص ٢٠٢ ، وإذا كان يحيى بن سعيد يشير إلى وصلاتهم بالعرب ، ص ٢٠٢ ، وإذا كان غلام نقفور فإن جروسية ومن أخذ عنه مثل أسد رستم يقولون إنه كان ابن شقيق نقفور فوقاس . أما ابن العديم فيشير إليه على أنه كان « خادما لنقفور » (ابن العديم : زبدة الطلب ، ص ١٦١ .) بينها يذكر كانار أنه « أحد قواد نقفور وأنه كان خصيا » .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٨ هـ .

لكن لماذا عاد نقفور الى بلاده بعد ذلك ، هل كان ذلك بسبب تحصينات انطاكية وحبب معا كما ذكر ابن الأثير ؟ « أراد أن يحصر انطاكية وحبب فبلغه أن أهلها قد اعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه فامتنع من ذلك » ، (١) أم أن عودته كانت راجعة الى شدة تحصينات قرغويه لحلب ؟ « حين علم ملك الروم بتقوية قرغويه لحلب دخل بلاده » . (٢) لكن إذا كان هذا مادونه المصدر العربي فإن المصادر البيزنطية والغربية لم تبرز سببا جوهريا لتلك العودة ولو أنه من المرجح أن الإمبراطور عاد عندئذ ليوجه ضربة سريعة قوية للبلغار على الدانوب (٣) .

وكل ما يهنا هو أن نقفور عاد الى بلاده من شمال الشام في أوائل ٣٥٨ هـ وبالتحديد بعد مضي حوالي شهرين (٤) منها « مطلع ٩٦٩ م » (٥) ، ومعه من الصبي حوالي مائة ألف شخص « ولم يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشبان » أما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه (٦) .

والواقع أن سياسة نقفور في بلاد الشام ، وإصراره على القيام بحملة على تلك البلاد سنة بعد أخرى ، أدت إلى تحول شديد في ميزان القوى في شمال بلاد الشام آنذاك لمصلحة البيزنطيين .

وكان أن تضافرت عدة عوامل في ذلك الوقت لتسهيل مهمة البيزنطيين في الإستيلاء على شمال بلاد الشام ، وكانت أول مدينة هامة تسقط في أيديهم بعد قليل هي مدينة انطاكية .

ذلك أن انطاكية كان قد إعتراها الضعف بسبب إفتقارها إلى الرجال المحاربين بعد أن أسر الإمبراطور عددا كبيرا من شبابها الأقوياء .

يضاف الى ذلك اضطراب الأحوال الداخلية في انطاكية آنذاك . من ذلك ما يتردد في المصادر عن وصول رجل أسود اليها من مصر « ممن أفلت من صعلاليك الطرسوسيين يعرف بالرغلي » جاءها في قوة قليلة ليفزو بهم

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، حوادث ٣٥٨ هـ .

(٢) ابن العديم : تاريخه ، ج ١ ، ص ١٦١ .

3 — G. Ostrogorsky : Op . cit , P. 292 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٨ هـ .

5 — G. Ostrogorsky : Op . cit , P. 292 ,

أبدرستم : المرجع السابق ، ص ٤٢

د . جوزيف نسيم : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٦٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٨ هـ .

الى أطراف الروم واقام بها فترة مع علوش الكردي الذي كان يتولاها آنذاك ثم اغتيل الرغلي علوش وانفرد بحكم انطاكية « حتى جاءها بطرس الإسطراطوبدرخ » (١) أو بطرس فوقاس من قبل الإمبراطور نقفور ، كما مر بنا ، وعندئذ انضم اليه ميخائيل بورتزيه المقيم بحصن بفراس .

فاذا أضفنا الى ذلك دور أهل بوقة (٢) من النصارى الذين كان الإمبراطور نقفور قد إستولى على بلدهم وإتفق معهم على أن ينتقلوا إلى انطاكية متظاهرين بأنهم إنما فعلوا ذلك خوفا من الروم . ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا عوناً للروم الذين ماكأدوا يصلون إلى انطاكية حتى أعانواهم على فتحها ، ففعلوا ذلك كما اتفقوا أيضاً مع نصارى انطاكية ثم كاتبوا « الطربازى » (٣) أو Pierre le Stratopedarque ويرجح أنه في نفس ذلك الوقت أيضاً أرسل قرغويه الى الطربازى مستنجداً بعد أن حاصره سعد الدولة أبو المعالى ، وبالفعل سار الطربازى نحوه ثم « عدل إلى انطاكية » (٤) .

وهكذا حانت الفرصة لقوات نقفور فوقاس لفرض سيطرتها على الجزء الشمالى من بلاد الشام في الوقت الذى كان الإمبراطور نفسه مقيماً في القسطنطينية يقضى السنة الأخيرة من حكمه .

(١) يحيى بن سعيد الانطاكى : تاريخه ، ص ١٢٣ — ١٢٤ . هنا يذكر (كانار) أن السلطة في انطاكية انتقلت من علوش الكردي الى المصرى الاسود الذى كان فيما مضى ضمن حامية طرطوس (M. Canard . Op. cit, T. 1. P. 832)

(٢) بوقة أو بوقا قرية من قرى انطاكية (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت، ج٤ ، ص ٥١٠). وقد بنى هشام بن عبد الملك « حصن بوقا من عمل انطاكية ثم جدد وأصلح حديثاً » (البلاذرى : كتاب فتوح البلدان ، نشر الدكتور صلاح الدين المنجد ، القسم الأول، ص ١٧١) أما ابن حوقل فقد حددها على الخريطة التى رسمها وسماها « صورة الشام » بأنه إذا جعلنا بلاد الروم إلى الجنوب وجبل اللكام شرقاً وضفة الفرات غرباً تكون سمياط وملطية على ضفة الفرات وإلى الشرق منهما شمشاط « ويأخذ من شمشاط طريق إلى الجبل وعليه دلوک ورعبان ومرعش وبوقا وأسفل بوقا الحدث » أما انطاكية فتقع في شمال غرب بوقا .

(ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الاول ، ص ١٦٦ — ١٦٨)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ ، ابن ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ .

وهكذا تضافرت جهود نصارى بوقّة والنصارى المقيمين فى أنطاكية ذاتها « وكاتبوا الطربازى حين خرج ، بأن أنطاكية خالية ، وليس بها سلطان . » (١)

ولا شك فى أن ضعف أنطاكية حينذاك بالإضافة إلى دور أهل بوقّة ساعدا فى تسهيل مهمة دخول بطرس فوقاس وميخائيل بورتزيه إلى أنطاكية وتم ذلك فى ذى الحجة ٣٥٨ هـ (٢) / أكتوبر ٩٦٩ م . (٣) أو فى أول سنة ٣٥٩ هـ (٤) / ٩٦٩ م . ولو أنه من المرجح أن أنطاكية تعرضت لحصار من جانب الروم إستمر من ذى الحجة ٣٥٨ هـ حتى أول ٣٥٩ هـ ، حتى تمكنوا من دخول المدينة والإستقرار بها .

وما أن دخل الروم أنطاكية حتى أشعلوا فيها النيران ووضعوا السيف فى أهلها وأسروا عددا كبيرا من شباب المسلمين ورجالهم ونسائهم ، بل بلغ بهم الحد أن « جعلوا الجامع صيرة للخنازير » (٥) ثم طرد بقية الأهالى المسلمين من المشايخ والعجائز والأطفال من البلد (٦) . وأعيد تعبيرها بواسطة عناصر مسيحية خصوصا من الأرمن (٧) .

ويعلق ابن حوقل تعليقا معبراً عن موقف القوى الإسلامية المتخاذل من سقوط المدينة فى قبضة الروم فيقول « فتحها الروم فى أول سنة تسع وخمسين فما اضطرب فيها من قطع شعرة للروم ولا توصل فى نصرتها برأى

(١) ابن العديم : المصدر السابق ، د ١ ، ص ١٦٢ .

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص ١٣٤ ، وهو يذكر أن ذلك كان فى ثالث عشر ذى الحجة ، ابن العديم : تاريخه ، د ١ ، ص ١٦٢ ويذكر أن ذلك حدث لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة أى فى رابع عشر ذى الحجة .

3 — G. Ostrogorsky : Op . cit , P. 290 , René Grousset : L' Empire du Levant , P. 116 .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ١٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ ، ابن العديم تاريخه ، د ١ ، ص ١٦٢ — ١٦٣ . هنا يذكر ابن الأثير أن عدد من سبى فى ذلك الوقت كان يزيد على عشرين ألف إنسان .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، حوادث ٣٥٩ هـ .
7 — René Grousset . L' Empire du Levant . P. 116 .

صحيح ولا مثلوم وبجوارها من السلاطين والبوادي والقروم والملوك من قد أشغله يومه عن غده وحرامه وحطامه عما أو جب الله تعالى والسياسة والرياسة عليه فهو يلا حظ مافي أيدي تجار بلاده ويشتمل عليه ملك رعيته ليوثق الحيلة على اخذه والشبكة على صيده والفخ على ما نصب له ثم لايمتع به فيسلب عما قريب ماإحتقب من الحطام وجمع من الآثام » . (١)

وقد قبل سقوط أنطاكية في يد البيزنطيين بارتياح كبير في العالم المسيحي أجمع ، وعلق بعض المؤرخين المحدثين على ذلك بقولهم « لقد تم الانتقام بعد مرور قرون عديدة من البؤس والهزائم » (٢) هذا في حين هلك البعض الآخر بعودة أنطاكية للبيزنطيين ، ووصفها بأنها « أنطاكية العظيمة ثيوبوليس Theopolis المجيدة ، مدينة البطارقة العظام ، مدينة الرسل العظام ، مدينة الجامع البدع والهرطقة » (٣) .

والواقع أن الاستيلاء على أنطاكية كان من أخطر النتائج التي أسفر عنها التدخل البيزنطي في الشام في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) لما ترتب عليه من عودة تلك المدينة الى أحضان المسيحية بعد أن ظلت في أيدي المسلمين منذ أن انتزعوها في صدر حركة الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي ، عندما اضطر الامبراطور هرقل ٦٣٥م/ ١٤ هـ الى التخلي عنها ، وباستيلاء البيزنطيين عليها في القرن العاشر عادت مرة أخرى للحكم البيزنطي وأصبح يحكمها حاكم يعينه الإمبراطور البيزنطي ، كما غدت تلك المدينة الحصينة المعقل الأمامي للامبراطورية البيزنطية على حدود شمال الشام ، وظلت كذلك حتى تمكن المسلمون من استردادها (٤) .

(١) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الاول ، ص ١٨٠ .

Schlumberger عن Rene Grosset : Op . cit , P. 116 — 2

3 — A . A . Vasiliev . . Op. cit, T. 1, P. 409 .

Theopolis اسم اعطاه جستنيان للمدينة . ولقد كان لأنطاكية أهميتها بالنسبة للمسيحيين عامة وللدولة البيزنطية خاصة ، اذ كانت مقر مطرانية هامة ، وكانت لها ارتباطاتها التاريخية والدينية ببيزنطة منذ القدم ، كما كانت مركزا من المراكز المسيحية الهامة منذ العهود الأولى للمسيحية . وقد ظلت تابعة للحكم الاسلامي نحو ثلاثة قرون .

(G. Ostrogorsky : Op. cit , P. 290 ,

د . عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي على الشرق

العربي ص ١٨ ،

Larousse Encyclopedia of Ancient and Medieval History , the Middle Ages , P. 290 .

(٤) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٤٤ .

وأذا كان السلاجقة المسلمون قد استولوا على أنطاكية بعد ذلك في العاشر من شعبان ٤٧٧ هـ (١٠٨٥/م فان قصر المدة بين تلك السنة وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ م أمر له دلالة بالنسبة لدارسى تاريخ الحروب الصليبية لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطى وإزالة بتايا الإدارة البيزنطية من المدينة مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقوقها الشرعى فى أنطاكية وتصر على ذلك الحق منذ اليوم الأول الذى قامت فيه إمارة أنطاكية الصليبية (٢) فى ١٠٩٨ م / ٤٩٢ هـ .

وفى غمرة الانتصارات التى حققها الروم فى أنطاكية كان لابد من أن يتطلعوا الى توسيع نفوذهم فى شمال الشام حيث مازالت مدينة حلب تشكل عقبة كؤود فى وجهه التوسع البيزنطى . وقد مرر بنا كيف توافق زمنيا استنجد نصارى أنطاكية قبل فتحها ببطرس فوقاس (الطريزى) مع استنجد قرغويه ضد أبى المعالى سعد الدولة الذى كان محاصرا له . وقد شرع بطرس فوقاس فى السير فعلا لنجدة قرغويه الا انه غير خط سيره فى آخر لحظة الى أنطاكية ونجح فى الاستيلاء عليها . وبعد ذلك جاء دور حلب فتوجه اليها بطرس فوقاس لنجدة قرغويه .

ويبدو ان سعد الدولة خشى عاقبة الاصطدام بالروم ، وخاصة بعد أن استفحل خطرهم بالاستيلاء على أنطاكية ، فعدل عن حصار حلب وسار منها الى حمص وهذا ما عبر عنه يحيى بن سعيد الأنطاكي بقوله « لما عرف أبو المعالى فتح أنطاكية رحل عن حلب الى حمص وأقام بها » (٣) . وبالفعل أنفذ الروم « جيشا كثيفا » الى حلب (٤) .

ولا شك فى أن زحف الروم على حلب لم يكن بدافع نجدة قرغويه بقدر ما كان وليد الرغبة فى الاستيلاء على حلب ذاتها ولذلك ما كادوا يصلون الى أسوارها حتى شرعوا فى مهاجمة المدينة من شماليها وحاصروا قلعتها (٥) وبعد أن استمر حصارهم لها « سبعا وعشرين يوما » أدركوا صعوبة

(١) ابن القلانيس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧ .

(٢) د . سعيد عاشور . الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٠٠ — ١٠١ .
كان سليمان بن قتلмыш السلجوقى قد باغت أنطاكية (وملكها سرقة) من فلاريتوس الأرمنى .

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص ١٣٤ . هنا يذكر ابن العديم أن أبو المعالى رحل الى خناصره ثم الى معرة النعمان . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٦٣) .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

الاستيلاء عليها ، فترددت المراسلات بين بطرس فوقاس وبين قرغويه الى أن تقرر الأمر على صلح وهدنة مؤبدة « (١) .

وهكذا وجد قرغويه نفسه مضطرا الى عقد هدنة مع البيزنطيين بعد أن تسبب هو في اضعاف الجبهة الإسلامية في شمال الشام بعدم اتحاده مع سعد الدولة . أما عن أهم بنود تلك المعاهدة فيمكن الوقوف عليها مما ذكره ابن العديم (٢) :

١ — « هادنهم قرغويه على حمل الجزية عن كل صغير وكبير من سكان المواضع التي وقعت الهدنة عليها ، دينار قيمته ستة عشر درهما إسلامية وأن يحمل إليهم في كل سنة عن البلاد التي وقعت الهدنة (٣) عليها سبعمائة ألف درهم » .

وكما يفهم من هذا البند فانه اختص بتحديد الجزية التي على الرؤوس والخراج الواجب على الأرض . وقد فرضت الجزية على كل مسلم بدون استثناء بالاضافة الى أن الخراج الواجب على أرض الهدنة كلها حدد بسبعمائة ألف درهم » .

٢ — « يكون الأمير على المسلمين قرغويه ، والأمر بعده لبكجور ، وبعدهما ينصب ملك الروم أميرا يختاره من سكان حلب وليس للمسلمين أن ينصبوا أحدا » .

نص هذا البند على أن يتولى إمرة حلب الحاجب قرغويه ثم بكجور ثم

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص ١٣٤ .

(٢) أورد ابن العديم المعاهدة أو الاتفاقية بشيء من التفصيل في كتابه زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٦٣ : ١٦٨ .

(٣) فصل ابن العديم في المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٤ — ١٦٥ هذه البلاد على النحو التالي : « حمص ، جوسية ، سلمية ، حماه ، شيرز ، كفر طاب ، أنابية ، معرة النعمان ، حلب ، جبل السماق ، معرة مصرين ، قنسرين والأثارب الى طرف البلاط الذي يلي الأثارب وهو الرصيف الى أرحاب ، الى باسوفان الى كيمار الى برصايا ، الى المرج الذي هو قريب عزاز ، ويمين الحد كله لحلب والباقي للروم ، ومن برصايا يميل الى الشرق ، ويتصل وادي أبي سليمان الى فج سنياب الى نافوذا ، الى أوانا الى تل حامد ، الى يمين الساجور الى مسيل الماء الى أن يمضي ويختلط بالفرات (انظر يا قوت الحموي : معجم البلدان ، الغزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ، Dussaud)

(Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievale)

ومعظم هذه البلاد يقع عند القسم الأوسط من جبل بهرا حسب تقسيم ابن حوقل : : صورة الأرض ، القسم الاول ، ص ١٦٦ .

يولى إمبراطور الروم بعد ذلك من يشاء من سكان حلب دون تدخل من المسلمين .

٣ — « لا يؤخذ من نصرانى جزية فى هذه الاعمال ، الا اذا كان له بها مسكن أو ضيعة » .

وهذا البند جعل شرط الجزية على المسيحي أن يكون له مسكن أو أرض ببلاد الهدنة وبذلك إستثنى المسيحيين الذين لا يملكون شيئاً .

٤ — « إن ورد عسكر إسلامى يريد غزو الروم منعه قرغويه ، وقال له : « إمض من غير بلادنا ، ولا تدخل بلد الهدنة » فان لم يسمع أمير ذلك الجيش قتاله ومنعه ، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم (١) والطربازى لينفذ اليه من يدفعه » .

وبذلك فرضت المعاهدة الا تستخدم أرض حلب معبرا لاي جيش اسلامى يقصد بلاد الروم ، واذا أصر قائد ذلك الجيش على اختراق أراضي حلب فى طريقه لغزو بلاد الروم ، وجب على أمير حلب صده ومقاتلته ، فاذا عجز كاتب إمبراطور الروم أو ابن أخيه بطرس فوقاس « الطربازى » لبيعته اليه من يرد ذلك الجيش .

٥ — « متى وقف المسلمون على حال عسكر كبير كتبوا الى الملك والى رئيس العسكر ، وأعلموهما به لينظروا فى أمرهما » .

أى انه اذا علم مسلمو حلب أو البلاد التى تشملها هذه الهدنة بتحرك جيش كبير الى بلاد الروم كتبوا الى الامبراطور والى قائد جيشه وأخبروهما به ليتخذوا حذرهم ويعدوا له عدتهم .

٦ — « إن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاه الى بلد الاسلام تلقاه بكجور الى المكان الذى يؤمر بتلقيه اليه ، وأن يشيعه فى أعمال الهدنة » .

اذا عزم الامبراطور أو قائد جيشه مهاجمة بلاد المسلمين تلقاه بكجور الى المكان الذى يؤمر بتلقيه اليه ويرافقه داخل نطاق منطقة الهدنة .

(١) المقصود به إمبراطور الروم لكن ابن العديم يسميه باسم الملك فى بيود المعاهدة كلها .

٧ — « لا يهرب من في الضياع لبيتاع العسكر الرومى ما يحتاجون اليه ، سوى التبن ، فانه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شيء » .

وفى الحالة السابقة يظل أهالى البلاد التى تشملها الهدنة فى أماكنهم حتى يبتاع جيش الروم منهم ما يحتاج اليه ، ما عدا (التبن) — وهو علف الخيل — فانه يؤخذ منهم دون مقابل .

٨ — « يتقدم الأمير بخدمة العساكر الرومية الى الحد ، فاذا خرجت من الحد عاد الأمير الى عمله » .

يتقدم أمير حلب بخدمة القوات الرومية الى حدود البلاد المشمولة بالهدنة فاذا فارقت حد منطقة الهدنة عاد أمير حلب الى مقره .

٩ — « إن غزا الروم غير ملة الاسلام سار اليه الأمير بعسكره ، وغزوا معه كما يأمر » .

اذا خرج الجيش الرومى لمحاربة غير المسلمين سار اليه أمير حلب بقواته وحاربوا معه .

١٠ — « أى مسلم دخل فى دين النصرانية فلا سبيل للمسلمين عليه ، ومن دخل من النصارى فى ملة الاسلام فلا سبيل للروم عليه » .

أى مسلم دخل النصرانية لا حكم للمسلمين عليه ، وأى نصرانى دخل الاسلام لا حكم للروم عليه .

١١ — « متى هرب عبد مسلم أو نصرانى ، ذكرى كان أو أنثى ، من غير الأعمال المذكورة اليها ، لا يستره المسلمون ، ويظهرونه ، ويعطى صاحبه ثمنه عن الرجل ستة وثلاثون ديناراً ، وعن المرأة عشرون ديناراً رومية ، وعن الصبى والصبية خمسة عشر ديناراً ، فان لم يكن له ما يشتريه أخذ الأمير من مولاة ثلاثة دنائير ، وسلمه اليه . فان كان الهارب معمداً فليس للمسلمين أن يمسكوه ، بل يأخذ الأمير حقه من مولاة ، ويسلمه اليه » .

اذا هرب رق مسلم أو نصرانى ذكرى أو أنثى من غير أعمال الهدنة الى حلب وأعمالها لا يخفيه المسلمون ويعطى صاحبه ثمنه عن الرجل ستة وثلاثون ديناراً وعن المرأة عشرون ديناراً وعن الصبى والصبية خمسة عشر ديناراً ، فاذا لم يوجد من يشتريه أخذ أمير حلب من مولاة ثلاثة دنائير وسلمه اليه .

١٢ — « إن سرق سارق من بلاد الروم ، واخفى هاربا ، أنفذه الأمير الى رئيس العسكر الرومى ليؤدبه » .

إن سرق سارق من بلاد الروم ، وفر هاربا الى حلب وأعمالها أرسله أميرها الى قائد الجيش الرومى ليؤدبه .

١٣ — « إن دخل رومى الى بلد الاسلام فلا يمنع من حاجته » .

١٤ — « إن دخل من بلد الاسلام جاسوس الى بلد الروم اخذ وحبس » .

١٥ — « لا يخرب المسلمون حصنا ، ولا يحدثوا حصنا ، فان خرب شئ أعادوه » .

لا يخرب المسلمون حصنا ولا يعمرؤا حصنا ، داخل البلاد التى تشملها الهدنة .

١٦ — « لا يقبل المسلمون أميرا مسلما ، ولا يكتبوا احد غير الحاجب وبكجور . فان توفيا لم يكن لهم أن يقبلوا أميرا من بلاد الاسلام ، ولا يلتبسوا من المسلمين معونة ، بل ينصب لهم من يختاره من بلاد الهدنة » .

لا يرتضى المسلمون فى حلب أميرا مسلما ولا يكتبوا احدا غير الحاجب قرغويه وبكجور فاذا توفيا لا يقبلوا أميرا من بلاد المسلمين او يطلبوا منه معونة بل ينصب لهم إمبراطور الروم من يختاره من بلاد الهدنة .

١٧ — « ينصب لهم الملك بعد وفاة الحاجب وبكجور قاضيا منهم ، يجرى أحكامهم على رسمهم » .

يختار إمبراطور الروم بعد وفاة الحاجب قرغويه وبكجور قاضيا من المسلمين يرجعون اليه فى أحكامهم .

١٨ — « للروم أن يعمرؤا الكنائس الخربة فى هذه الاعمال ، ويسافر البطارقة والأساقفة اليها ويكرمهم المسلمون » .

يعمر الروم الكنائس الخربة فى تلك المنطقة ويسافر البطارقة والأساقفة اليها ويكرمهم المسلمون .

١٩ — « إن العشر الذى يؤخذ من بلد الروم ، يجلس عشار الملك مع عشار قرغويه وبكجور فمهما كان من التجارة من الذهب والفضة ، والديباج الرومى ، والقز غير معمول ، والأحجار والجوهر ، واللؤلؤ ، والسندس ، عشرة عشار الملك ، والثياب والكتان والمزبون والبهائم وغير ذلك من التجارات يعشره عشار الحاجب وبكجور بعده ، وبعدها يعشر ذلك كله عشار الملك » .

تقدر العشور (أى نسبة الضرائب على التجارة) على النحو التالى :
فالعشر الذى يؤخذ من بلد الروم يجلس عشاسار الملك مع عشاسار قرغويه
وبكجور فمهما كان من التجارة الرفيعة من الذهب والفضة والديباج الرومى
والأحجار والجوهر وغيره عشره عشاسار الملك . أما الكتان والبهايم وغيرها
من التجارة الوضعية فكان يعشره عشاسار الحاجب وبكجور بعده ثم يعشر
ذلك كله عشاسار الملك .

٢. — « متى جاءت قافلة من الروم ، تقصد حلب ، يكتب الزروار (١)
المقيم فى الطرف الى الأمير ، ويخبره بذلك لينفذ من يتسلمها ، ويوصلها الى
حلب . وان قطع الطريق عليها بعد ذلك ، فعلى الأمير أن يعطيهم ماذهب .
وكذلك إن قطع على القافلة أعراب أو مسلمون فى بلد الأمير ، فعلى الأمير
غرامة ذلك » .

* * *

هذه هى أهم بنود الاتفاقية أو الهدنة أو المعاهدة التى عقدت بين
قرغويه والروم ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وقد حلف على تلك النصوص جماعة
شيوخ حلب مع الحاجب وبكجور وسلم المسلمون رهائن من أهل حلب (٢).
ضمائنا لتنفيذ الشروط السابقة .

وبتحليل شروط هذه الاتفاقية نجد أن البندين الأول والثالث تناولا
الجزية التى على الرؤوس والخراج الواجب على الأرض . وتبدو التفرقة
واضحة بين ما يؤخذ من المسلم والمسيحى حيث فرضت الجزية على كل
مسلم بدون استثناء وقد ورد هذا فى البند الأول ، أما البند الثالث فيلهمر
فيه استثناء بعض المسيحيين من دفع الجزية حيث جعل شرط دفعهما على
المسيحى أن يكون له مسكن أو أرض بأرض الهدنة .

أما البند الثانى فقد نص على أن يتولى إمرة حلب الحاجب قرغويه ثم
بكجور ثم يولى إمبراطور الروم من يشاء من سكان حلب بعد ذلك ، وقد
أكد نفس المعنى فى البند السادس عشر .

(١) الزروار هو أحد المناصب عند الروم عددها لئسا ابن حوئل فى كتابه
صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ١٩٥ — ١٩٦ فالملك يتبعه فى المنزل
الغثيط ثم الفرخ ثم الدمستق ثم انبطارقة ثم الزرارة ثم الطرامخة .

(٢) كان الرهائن هم أبو الحسن بن أبى أسامة ، وكسرى ابن كسور ،
وابن أخت ابن أبى عيسى ، وأخو أبى الحسن الخشاب ، وأبو الحسن بن
أبى طالب ، وأبو الطيب الهاشمى ، وأبو الفرج العطار ، ويمن غلام قرغويه .
وكان المتوسط فى هذه الهدنة رجل هاشمى من أهل حلب يقال له طاهر .

وأعطى البند السابع عشر امبراطور الروم الحق في اختيار قاضي من المسلمين يرجعون اليه في أحكامهم وذلك بعد وفاة ترغويه وبكجور ، مما يشير الى أن ترغويه ومساعده كانا يتوليان السلطة القضائية في حلب .

وتنصب البنود من الرابع حتى التاسع بالاضافة الى الخامس عشر على الناحية العسكرية وهى في أغلبها امتيازات للروم فقط ، فالبند الرابع يحتم على أهالى منطقة الهدنة عدم السماح لآى جيش اسلامى باستخدام أرضهم معبرا الى بلاد الاسلام والا رفع الأمر الى الامبراطور أو الدمشق ليبت فيه .

بينما يجعل البند السادس من بكجور مرشدا ودليلا لجيش الامبراطور او قائده اذا نوى مهاجمة بلاد المسلمين .

ويشير البند السابع الى أن أهالى بلاد الهدنة ملزمين بتقديم احتياجات الجند البيزنطى اثناء مرورهم ببلادهم يشترونها منهم ، وبناء على ذلك لايسمح للاهالى بمغادرة البلاد في ذلك الوقت . أما علف الخيل وهو (التبن) فيقدمه الأهالى لخيول الروم دون مقابل .

ويفرض البند الثامن على أمير حلب نفسه أن يتقدم قوات الروم حتى تعبر بلاد الهدنة ثم يعود بعد ذلك الى مقره .

وأكثر من هذا فان البند التاسع يجعل مساعدة أمير حلب لامبراطور الروم في أى حرب مع غير المسلمين شيئا حتميا لابد أن يقدمها الأمير عن طيب خاطر .

أما البند الخامس عشر فيحتم على المسلمين عدم تخريب أو تعمير أى حصن داخل البلاد التى تشملها الهدنة .

وهكذا كبل الروم حلب وأرض الهدنة بقيود حديدية عسكرية بما أملوه على أهلها من التزامات ثقيلة .

أما في الناحية الدينية فقد رفعت الاتفاقية الحرج عن أى مسلم يدخل في النصرانية أو أى نصرانى يدخل في الاسلام وجاء ذلك في البند العاشر .

كذلك أتاح البند الثامن عشر للروم تعمير الكنائس الخربة في منطقة الهدنة وأن يحظى البطارقة والأساقفة فيها بتكريم المسلمين .

أما البنندان التاسع عشر والعشرون فيعالجان الجوانب التجارية وفيها يبدو الإجحاف واضحا بالمسلمين .

كذلك يبدو الحيف الذى أنزلته هذه الاتفاقية بالجانب الإسلامى عندما نص البند الثالث عشر على السماح لآى رومى بدخول بلاد الإسلام بينما منع البند الرابع عشر دخول المسلم الى بلاد الروم بل اعتبر أنه جاسوسا فى هذه الحالة ولزم القبض عليه وحبسه .

هذا الى جانب العديد من البنود الأخرى التى تمثل فى مجملها امتيازات للروم على حساب المسلمين .

وهكذا غدت حلب — وفقا لتلك الاتفاقية — إمارة تابعة للإمبراطورية البيزنطية (١) ويذكر « جروسية » أن نهر العاصى كان يمثل الحد الفاصل بين تلك الإمارة التابعة أو الخاضعة وبين « أراضى أنطاكية التى نذت منذ ذلك الوقت فصاعدا جزءا من الإمبراطورية يحكمها موظف بيزنطى يحمل لقب الدوق » (٢) .

والواقع أن الاتفاقية المعقودة بين ابن شقيق نقفور فوقاس — بطرس فوقاس — من ناحية البيزنطيين ، وبين الحاجب قنسويه ، من الجانب الإسلامى تمثل أقصى الضربات الدبلوماسية التى حلت بالمسلمين فى النصف الأخير من القرن العاشر لليلاد . وقد عبر المؤرخون الغربيون عن الذل الذى أصاب الجانب الإسلامى فى تلك الاتفاقية ، فقال بعضهم « أن أحد سلالة بيت سيف الدولة اضطر الى عقد صلح مخزى مع البيزنطيين » (٣) وقال آخر أنه « لم يلحق بالإسلام أبدا مثل ذلك الإذلال » (٤) وربما كان ذلك هو الدافع لأحدهم بوصف نص الاتفاق بأنه « النص القوى المفيد والمثير » (٥)

وربما كان إحساس المسلمين بالخزى والعار هو السبب فى أن المصادر العربية أشارت الى شروط الهدنة فى شيء من الإيجاز والاقتضاب فضلا عن أن أغلبها توقف عن التعقيب عاها .

1 — A.A Vasiliev : Op. cit, T.1, P. 409, Canard : Op. cit, T.1, P.833 .

2 — René Grousset : L'Empire de Levent, P. 116 .

3 — G. Ostrogorsky : Op. cit , P. 290 .

والواقع أن قرغويه الذى وقع الاتفاقية مع البيزنطيين لم يكن من سلالة سيف الدولة الحمدانى .

4 — A.A Vasiliev : Op. cit, T.1, P. 409, René grousset : Op. cit , P. 116 .

5 — A.A Vasiliev : Ibid , T. 1, P. 409 .

والواقع إن خضوع حلب بهذه الصورة للنفوذ البيزنطى كان له رنة
الم وأسف في نفوس المسلمين عامة ، وظهر صدى ذلك في بغداد حاضرة
الخلافة العباسية حيث اجتمع المسلمون وطالبوا الخليفة العباسى المطيع
بالخروج للاخذ بثأر أهل حلب (١) ولكن الخلافة العباسية كانت عندئذ
أضعف من أن تتحرك .

والحقيقة أن الروم عظمت شوكتهم بعد هذه الهدنة أو الاتفاقية واشتد
عبثهم بالمناطق الواقعة شرقى آسيا الصغرى ، وخاصة تلك التى يملكها
المسلمون . وخير دليل على ذلك ما ذكره ابن الأثير عن الروم بعد عقد
اتفاقيتهم مع قرغويه مباشرة سنة ٣٥٩ هـ حيث قال « وفيها أرسل ملك الروم
جيشا الى ملازكرد من أعمال أرمينية ، فحصروها ، وضيقوا على من بها
من المسلمين وملكوها عنوة وقهرا ، وعظمت شوكتهم ، وخافهم المسلمون في
أقطار الأرض . وصارت كلها سائبة لا تمنع عليهم يقصدون أيها
شأوا » (٢) .

أما عن الامبراطور فوقاس الذى رأى فتح أنطاكية على يد قواده فان
القدر لم يمهله ليشهد عقد المعاهدة الحربية البيزنطية في صفر ٣٥٩ هـ / يناير
٩٧٠ م ، حيث ان تلك الاتفاقية عقدت بعد مقتله في نهاية ٩٦٩ م (٣) المحرم
/ ٣٥٩ هـ (٤) .

ولم تخف المصادر العربية المعاصرة تشقى المسلمين في الامبراطور
نقفور الذى قتل « بطريقة وحشية مؤلة » (٥) ، من ذلك ما يذكره المؤرخ
ابن الأثير عن امبراطور الروم من أنه « لما استفحل أمره أتاه الله من
حيث لم يحتسب » (٦) .

وهكذا لم يشهد نقفور أعظم ثمرة لجهوده الحربية الكبيرة وهى اخضاع
شمال بلاد الشام للحكم البيزنطى . وإذا كان ذلك من أهم النتائج المترتبة
على اتفاقية صفر ٣٥٩ هـ / يناير ٩٧٠ م ، فان آثار ذلك الاتفاق ظلت قائمة

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ .

3 — A.A. Vasiliev : Op. cit, T.1, P. 409, M. Canard : Op. cit, T. 1,

P. 837, G. Ostrogorsky Op. cit P. 293 .

وقد حدد الأخير تاريخ وفاته بيلة ١٠ — ١١ ديسمبر ٩٦٩ م .

(٤) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ١٣٦ ، ابن الأثير : الكامل ،

حوادث ٣٥٩ هـ . هنا يحدد يحيى بن سعيد وفاته بأنها كانت « لليلتين بقيتنا

من المحرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة » .

5 — C. W Previte — Orton : Op. cit , V. 1, P. 259 .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ .

في مخبلة البيزنطيين فكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق الطبيعي في تلك المنطقة .

ذلك أن الب أرسلان سلطان سلاجقة فارس أنزل بامبراطور الروم هزيمة ساحقة في موقعة مانزكرت ٤٦٣ هـ (١) / ١٠٧١ م ، وبعدها أخذ نفوذ السلاجقة المسلمين يمتد سريعا الى شمال وشرق آسيا الصغرى وقد ظهر من اقارب السلطان ملكشاه من أخذ يتوسع في آسيا الصغرى ونخص بالذكر سليمان بن قتلش الذى استولى على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى . ثم حدث في ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م أن نجح سليمان بن قتلش في الاستيلاء على أنطاكية التى كانت عندئذ في حوزة أمير أرمنى اسمه فيلاريتوس (٢) . وقد نازع العقيليون — وهم قبيلة عربية — السلاجقة في ملكية أنطاكية ، ودارت معركة حامية بين سليمان بن قتلش من ناحية والأمير شرف الدين مسلم العقيلي من ناحية أخرى ، وانتهت هذه المعركة بسيطرة السلاجقة المسلمين على شمال الشام (٣) .

ولكن الدولة البيزنطية لم يغمض لها جفن عن أراضيها التى ضاعت في أيدي المسلمين في آسيا الصغرى وشمال الشام . من ذلك أنه ما كادت الحملة الصليبية الأولى تصل الى الشرق في أواخر القرن التسالى أى القرن الحادى عشر للميلاد — حتى تصور الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ١٠٨١ — ١١٦٨ م / ٤٧٤ — ٥١٢ هـ أن باستطاعته أن يستغل القوى الصليبية الغربية القادمة للشرق لتعمل تحت إمرته لاستعادة السيادة البيزنطية على كافة آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام التى استعاد المسلمون السيطرة عليها . وبمقتضى اتفاقية ١٠٩٧ م / ٤٩١ هـ بين الامبراطور الكسيوس وأمراء الحملة الصليبية الأولى وافق الآخرون على ذلك ، ولكنهم لم يلتزموا بتنفيذها الا في آسيا الصغرى فقط ، وبوصول الصليبيين الى شمال الشام وأنطاكية ظهرت أطماع الأمراء وأخذ كل منهم يفكر في أن يعمل لحسابه الخاص .

* * *

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٠٠ « الطبعة الاولى ١٩٦٦ » .

(٢) ابن القلانيس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧ .

(٣) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

